شرح كتاب فضل الإسلام

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٠/٠٨/٠٢ هـ

الدرس الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

فإن نِعَم الله ﷻ على عباده كثيرةٌ لا تحصى وعديدةٌ لا تُستقصى ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣] ، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل:١٨] . وإن أجلّ نعَم الله تبارك وتعالى على عباده هدايته لهم إلى دينه الحنيف الذي ارتضاه تبارك وتعالى لعباده دينا ، كما قال ﷻ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] . فالإسلام أعظم منّة وأكبر عطية أنعم بها تبارك وتعالى على عباده ، ومَن منّ الله عليه بالإسلام فليعرف نعمة الله العظيمة عليه بهذا الدين ، وليعرف فضل هذا الدين ومكانته؛ فضل الإسلام ، وحقيقة الإسلام ، وما هي الأمور التي تنافي الإسلام أو تنافي كماله الواجب ، يتعلم ذلك ليزداد استمساكاً ومحافظةً على هذا الدين وعنايةً به .

وبين يدنا كتابٌ نافع جداً في بيان فضل الإسلام لإمامٍ وعلَمٍ نفع الله تبارك وتعالى به في مؤلفاته وكتبه القيمة التي انتشرت في أنحاء العالم ؛ بياناً للدين وبياناً للتوحيد وبياناً للإسلام الذي شرعه الله تبارك وتعالى لعباده ، وهو الإمام المجدِّد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له . وبين يدينا كتابٌ له عظيم عنوانه: «فضل الإسلام» ؛ وحقيقةً ؛ عندما تقرأ عن فضل الإسلام تستفيد فوائد عديدة ، أهمها ما يلي :

- أولا : أن تستشعر وتستحضر نعمة الله تبارك وتعالى عليك بهذا الدين الذي هو أعظم النعم وأجلّ المنن ؛ فيوجِد عندك هذا الاستحضار شكراً لله تبارك وتعالى على هذه النعمة العظيمة ، ومن شكر الله تبارك وتعالى على هذه النعمة العمل بالإسلام كما قال الله تعالى : ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾[سبأ:١٣]؛ العمل بهذا الإسلام والمحافظة عليه والاستمساك به والبُعد عن الأمور التي تُنقصه أو تُضعفه كل ذلك من شكر الله تبارك وتعالى على هذه النعمة .
- الأمر الثاني في دراستك وقراءتك عن فضل الإسلام ؛ أن هذا سبب من الأسباب المعينة لك على الثبات على هذا الدين والمحافظة عليه والعناية به .
- الأمر الثالث : أن معرفة فضائل الإسلام تزيد المسلم في إسلامه قوةً وفعلاً لأوامر هذا الدين وبُعداً عما حرمه الله تبارك وتعالى على عباده ، لأن معرفة الفضائل توجِد في العبد الرغبة في الزيادة من هذا الدين والعناية به.

- الأمر الرابع : أن معرفة فضائل الإسلام توجِد عند العاقل زهداً في البدع والمحدثات والأمور التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان ؛ لأنها ليست من الإسلام ، وهذه الفضائل مختصة بالإسلام الذي بعث الله تبارك وتعالى به رسله ورضيه لعباده كما مر معنا قول الله ﷻ : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ، فهو الدين الذي رضيه الله تبارك وتعالى لعباده .
- الأمر الخامس : أن واقع الناس الآن – بسبب كثرة الفتن والصوارف والصواد – فيه ضعفٌ في الاستمساك بهذا الدين ، وضعفٌ في العناية به عقيدةً وعبادةً وخُلُقا ؛ فكان الناس بحاجة إلى أن تُبيَّن لهم فضائل الإسلام ليعودوا من النقص إلى التمام ، ومن الضعف إلى القوة .

فهذا الكتاب الذي بين أيدينا عنوانه «**فضل الإسلام**» ، وقد ضمّنه مؤلفه رحمه الله فوائد عظيمة تتعلق بالإسلام؛ بياناً لفضله ، وإيضاحاً لحقيقته ، وتحذيراً من الأمور المخالفة له . ونبدأ مستعينين بالله ﷻ في قراءة هذا الكتاب والوقوف على فوائده .

وأشير إلى أمر لابد من الإشارة إليه وهو : أن طريقة هذا المصنِّف – أعني شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله – في كتبه كلها : أنه يجمع الآيات والأحاديث الواردة في الباب ولا يزيد على ذلك ، ولهذا سنرى هذا الكتاب لا تجد فيه كلاماً للمصنف وإنما تجد فيه آيات وأحاديث ؛ فهو رحمه الله جمع لك الآيات والأحاديث التي تتعلق بهذا الموضوع ولم يزد على ذلك ، بخلاف كتب أهل البدع فإنهم يجمعون للناس فيها آراءهم وتصوراتهم وعصارات أفكارهم ، أما هذا المصنِّف وأئمة السلف وعلماء السنة في القديم والحديث فطريقتهم جمع الآيات من كلام الله ﷻ والأحاديث في سنة النبي ﷺ وتبويبها وترتيبها ، وربما علّق بعضهم عليها بما يقتضيه المقام من إيضاحٍ وبيان يستفيد منه القارئ .

قال الإمام الأواب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في رسالته فضل الإسلام :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين . باب فضل الإسلام وقول الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

****

قال المصنِّف رحمه الله : ((**بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين**)) ؛ فبدأ هذا المؤلَّف القيِّم بالبسملة مقتدياً بكتاب الله ﷻ ، ومقتدياً بسنة النبي عليه الصلاة والسلام وطريقته في مراسلاته ومكاتباته ؛ فكان يبدأ بالبسملة .

وقول من يكتب «بسم الله» أي : بسم الله أكتب ، والباء في البسملة باء الاستعانة ؛ فالمبسمِل هو في الحقيقة مستعينٌ بالله جل وعلا طالبٌ عونه متيمِّنٌ بذكر اسم ربه تبارك وتعالى في أول عمله وبداية عمله ؛ ولهذا تُشرع

البسملة في بداية الأعمال ؛ بداية الأكل ، وبداية الشرب ، وعند دخول المنزل ، وعند الخروج منه لأي مصلحة من المصالح ، وعند قراءة القرآن ، وفي أول الصلاة ، فتشرع البسملة في أوائل الأعمال تيمناً وتبركاً بذكر اسم الله ﷻ وطلباً لمدِّه وعونه وتوفيقه ﷻ ؛ لأن الباء في «بسم الله» باء الاستعانة ، ومن يكتب ويبدأ كتابته بـ «بسم الله» فتقدير قوله هذا : أي بسم الله أكتب ، فالجار والمجرور متعلقٌ بمحذوف تقديره : أكتب ، وإن كان المبسمِل قارئاً فالتقدير : باسم الله أقرأ ، داخلاً : بسم الله أدخل ، بسم الله أخرج. ويُحذف متعلق الجار والمجرور للعلم به .

قال : ((**بسم الله الرحمن الرحيم**)) ؛ ذكر ثلاثة أسماء حسنى لله جل وعلا :

«**الله**» : وهو كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين.

و «**الرحمن الرحيم**» : اسمان دالان على ثبوت الرحمة صفةً لله ﷻ ؛ و«**الرحمن**» : دالٌ على الرحمة التي هي الصفة القائمة بالله ، و «**الرحيم**» دالٌ على تعلقها بالمرحومين كما قال ﷻ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[الأحزاب:٤٣] ، ولا يوجد "كان رحماناً بالمؤمنين " .

قال : ((**وبه نستعين**)) ؛ به : أي بالله ﷻ ، نستعين : أي نطلب العون .

وطلب العون من الله في كل عمل ديني ودنيوي أمرٌ لابد منه ؛ لأن العبد لا حول له ولا قوة إلا بالله ؛ فلابد من طلب العون والذل بين يدي الله تبارك وتعالى والاستعانة به وحده جل وعلا ؛ لأن الأمور كلها بيده سبحانه فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، لا يستطيع الإنسان أن يقرأ كتاباً إلا إذا أعانه الله ، ولا يستطيع أن يحضر درساً إلا إذا أعانه الله ، ولا يستطيع أن يعمل بذكرى أو موعظة إلا إذا أعانه الله ، ولا يستطيع أن يؤدي صلاةً إلا إذا أعانه الله ، قد قال الله ﷻ : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[النور:٢١] . فالأمور كلها بتوفيق الله جل وعلا وعونه ؛ ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل : ((يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ ، يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ)) ، وفي سورة الفاتحة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] . فالاستعانة – وهي طلب العون – عبادة عظيمة لابد منها في كل شؤون الإنسان وأموره ومصالحه الدينية والدنيوية ؛ يطلب عون الله تبارك وتعالى ومدَّه ﷻ وتوفيقه .

قال: ((**بابٌ فضل الإسلام**)) ؛ أي هذا باب معقود لبيان فضل الإسلام، و «**فضل**» هنا مفرد مضاف ، والقاعدة في المفرد إذا أضيف أنه يعُم ، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[الضحى:١١] أي نِعَم ربك . «فضل الإسلام» : أي فضائل الإسلام ، فالمفرد إذا أضيف يعُم. والإسلام له فضائل لا تحصى ؛ بل أن كل خير يناله العبد في دنياه وأخراه هو ثمرة من ثمار الإسلام ونتيجة من نتائجه ، وكل شر يناله العبد في دنياه وأخراه فسببه تضييع الإسلام ؛ الإسلام سبب العز والرفعة والتمكين والأمن والسعادة والفلاح في الدنيا والآخرة ، وتضييعه هو سبب الحرمان

والخسران في الدنيا والآخرة . ففضائل الإسلام لا تعد ولا تحصى ، وهذا الباب عقده المصنف ليبين شيئاً من فضائل الإسلام وفضائل هذا الدين العظيم .

ومعرفة فضائل الإسلام مفيدة للمسلم ولطالب العلم ؛ لأنها -كما تقدم - تحرك في القلب شكر المنعِم ، وتعين على الثبات ، وتكون سبباً للزيادة من هذا الدين والمحافظة عليه ، وسبباً للبُعد عن الأمور الصادّة عنه والصارفة عنه وهي كثيرة ؛ فمعرفة فضائل الإسلام والعناية بها مفيدة جداً للمسلم ، خاصةً في مثل هذا الزمن الذي راجت فيه الدعوات الباطلة للرذيلة من جهة ، وللضلالات بأنواعها من جهة أخرى ؛ فاحتاج المسلم أن يقف على فضائل دينه لتكون هذه المعرفة لفضائل الدين سبباً لزيادة الاستمساك به والمحافظة عليه والثبات عليه والبُعد عن الأمور المخالفة له ؛ وإن بُهرِجت وزُيّنت وكثرت دعاياتها فلا يغتر بها المسلم ، لا يغتر بها العاقل ، بل يقف على دينه وعلى فضائله ويستمسك به إلى أن يتوفاه الله تبارك وتعالى وهو على ذلك ،كما قال ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢]

قال: ((**بابٌ فضل الإسلام**)) ؛ والإسلام الذي ألَّف المصنف هذا الكتاب لبيان فضله هو دين الله ﷻ الذي رضيه لعباده ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[آل عمران:١٩] ، وقال ﷻ : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[آل عمران:٨٥] ، وقال ﷻ : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[المائدة:٣] ؛ فالإسلام هو دين الله الذي رضيه تبارك وتعالى لعباده واختاره لهم وأمَرهم به ، ولا يقبل لهم ديناً سواه .

والإسلام : هو الاستسلام لله جل وعلا ، وقد قال مصنف هذا الكتاب في تعريفٍ له قيّم للإسلام : «الإسلام : هو الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والخلوص من الشرك» ؛ هذا هو الإسلام ، الإسلام : أن تكون مستسلماً ؛ أي منقاداً مطيعاً ممتثلاً ، ما يأمرك الله تبارك وتعالى به تطيعه فيه وتمتثل أمره ﷻ وتنقاد ؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : ((مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا وَصَلَّى صَلَاتَنَا وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَهُوَ الْمُسْلِمُ)) وقال : ((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ)).

وأعظم ما يجب في هذا الباب : الاستسلام لله بالتوحيد ؛ بأن تكون عبداً موحداً ، أمَرك الله بالتوحيد والإخلاص وخلقك لذلك ؛ فالواجب أن يستسلم العبد لذلك .

وانظر أروع مثلٍ في تحقيق الاستسلام للملِك العلَّام ﷻ في قول إمام الحنفاء ، وانظر ما جاء قبله من تمهيد وتوطئة لذلك بقوله ﷻ : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ

بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ [البقرة:١٣٠-١٣٢] ؛ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ ﴾ ؛ لاحظ هذا الانقياد الفوري والطواعية السريعة والاستجابة بلا تردد ﴿ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ ﴾ : أي انقدتُ وأنا عبدٌ مطيعٌ منقاد مستسلم لله رب العالمين ﴿ أَسْلَمْتُ ﴾ : أي انقدتُ . فالإسلام هو دين الله ﷻ وهو يعني : الانقياد لله تبارك وتعالى بالتوحيد والإخلاص ، والبراءة من الشرك والبعد عنه ، والامتثال لله تبارك وتعالى بطاعته ﷻ ؛ بأن يكون المسلم عبداً مطيعاً لربه ﷻ فيما يأمره وفيما ينهاه؛ يمتثل الأوامر ويجتنب النواهي .

وعندما نتأمل في نصوص القرآن والسنة التي ورد فيها ذكر الإسلام نجد أن للإسلام في النصوص إطلاقين :

١- تارة يطلق الإسلام منفرداً .

٢- وتارة يطلق الإسلام مضموماً إلى الإيمان .

- والإسلام عندما يأتي في النصوص مفرداً فإنه يشمل الدين كله ، فقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران:١٩] ، وقوله: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾ [آل عمران:٨٥] وقوله : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] ونحوها من الآيات ؛ المراد بالإسلام هنا : الدين كله ؛ عقائده وعباداته وأخلاقه كل ذلك داخل في قوله : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ، وقوله: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ، فالإسلام عند الإطلاق المراد به الدين كله بعقائده وأعماله وأخلاقه، المراد به الدين كله عقيدة وشريعة ؛ هذا عند الإفراد .
- الإطلاق الثاني : يأتي الإسلام مضموماً إلى الإيمان ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات:١٤] ، ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [الأحزاب:٣٥] ، ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦] ، في الحديث قال سعد للنبي عليه السلام : «مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ!! فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا» ، فَقَالَ النبي ﷺ : ((أَوْ مُسْلِمًا)) وأعاد سعد وأعاد النبي عليه السلام ، فيأتي في بعض النصوص ذكر الإسلام مضموماً إلى الإيمان ، ففي هذه الحالة يراد بالإسلام : أعمال الدين الظاهرة ، ويراد بالإيمان : عقائد الدين الباطنة كما جاء ذلك في حديث جبريل المشهور قال : ((أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ)) ؛ ففسَّر الإسلام بالأقوال والأعمال الظاهرة . ثم قال: ((أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ ؟ قَالَ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)) ؛ ففسر الإيمان بالعقائد الباطنة التي في القلب ؛ وهي الإيمان بالله، والإيمان بالملائكة ، والإيمان بالكتب ، والإيمان بالرسل ، الإيمان باليوم الآخر ، والإيمان بالقدر خيره وشره .

فأصبح يراد بالإسلام والإيمان حال اجتماعهما –كما في النصوص التي أشرت إلى جملة منها – يراد بالإسلام : جنس الأقوال والأعمال ، ويراد بالإيمان: جنس التصديق والإقرار ؛ فكل ما كان عملاً أو قولاً فهو من الإسلام ، وكل ما كان تصديقاً وإقراراً بالقلب فهو من الإيمان . وهذا مبني على قاعدة ليست مختصة بهذين الاسمين ؛ بل تتناول كثير من الأسماء الشرعية ، والقاعدة هي قول أهل العلم : «إن من الأسماء ما يكون شاملاً لمسمياتٍ متعددةٍ عند إفراده وإطلاقه ؛ فإذا قُرِن ذلك الاسم بغيره صار دالاً على بعض تلك المسميات ، والاسم المقرون به دالٌ على باقيها» ، هذه القاعدة تشمل: الإسلام والإيمان ، والبر والتقوى ، والكفر والشرك ، والفقير والمسكين ، وأسماء شرعية كثيرة جداً يعبّر بعض أهل العلم عن هذا النوع من الأسماء بقولهم: «إذا اجتمعت افترقت ، وإذا افترقت اجتمعت» ؛ إذا اجتمعت أي في الذكر – ذُكرت في نص واحد – افترقت في المعنى ، وإذا افترقت في الذكر : أي ذُكر كل واحد منها مفرداً اجتمعت في المعنى . وهذا كما قدمت يتناول الإسلام والإيمان ويتناول أيضا أسماء شرعية كثيرة جداً .

وعلى ضوء ما تقدم لو قيل لنا : من المسلم ومن المؤمن ؟ وهذا سؤال مهم . قد مر معنا قول الله ﷻ ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ الآية واضحة أن رتبة الإيمان رتبة أعلى من الإسلام ، ولهذا لما قال هؤلاء الأعراب آمنا وهم لم يصِلوا إلى هذه الرتبة –رتبة الإيمان– قال ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ ؛ يعني ما زلتم في رتبة الإسلام ولم تصِلوا إلى رتبة الإيمان بعد . والدين رُتَب ومراتب ؛ ومراتبه ثلاث جاءت في حديث جبريل ، ذكر الإسلام ، ثم ذكر الإيمان ، ثم ذكر الإحسان وقال في تعريفه ((أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)) ، ثم ختم الحديث بقوله: ((ذاك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)) ؛ فديننا مراتب ثلاثة : الإحسان، والإيمان ، والإسلام . رتبة الإحسان هي أعلى رتب الدين ، ورتبة الإيمان أقل منها ، ورتبة الإسلام أقل، وليس وراء الإسلام إلا الكفر .

أحد العلماء المتقدمين ضرب مثالاً جميلاً لتوضيح هذه الرتب الثلاث ؛ فوضع ثلاث دوائر كل دائرة في داخل الأخرى ، دائرة صغيرة ، ويحيط بها دائرة أكبر ، ويحيط بها دائرة ثالثة أكبر ، فقال عن الدائرة الصغيرة هذه الإحسان ، والدائرة الأوسع منها قال هذه الإيمان ، والدائرة الأوسع قال هذه الإسلام ، فإذا دخل الإنسان في دائرة الدين أول ما يبدأ بالدخول يكون دخوله في أول رتب الدين وهي الإسلام . وما هو الإسلام الذي هو أول رتب الدين ؟ أن يستسلم ؛ ينطق بالشهادتين ويمتثل ما تقتضيه الشهادتان من طاعة وامتثال لله فهذا مسلم ، يفعل شعائر الدين الظاهرة مع عنايته بالإسلام وفهمه له وتحققه القلبي بهذا الدين وملأ قلبه بعقائده ينتقل من رتبة الإسلام إلى الإيمان ، وهي رتبة أعلى ، وهي عمارة القلب وملأه بحقائق الإيمان ، وقد قال عليه الصلاة والسلام عن عمار بن ياسر ((إِنَّ عَمَّاراً مُلِئَ إِيمَاناً إِلَى مُشَاشِهِ)) يعني إلى أطراف قدميه ، مُلأ من الداخل إيمانا ، هل

يُسوَّى بين من امتلأ قلبه إيماناً وبين من هو مسلم يعبد الله ولكنه على حرف – على طرف– !! ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ [الحج : ١١] أقل فتنة تبعده عن دينه !! .

فإذاً المسلم : هو الذي جاء بأعمال الإسلام الظاهرة وعنده شيء من الإيمان يصحح إسلامه ، لأن الأعمال الظاهرة بدون شيء من الإيمان يصحح هذا الإسلام لا تُقبل ؛ لأن الإيمان الباطن أساس لقبول العمل الظاهر ، ولهذا قال الله ﷻ : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة:٥] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾[الإسراء:١٩] ، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾[النحل : ٩٧]. فإذاً المسلم هو الذي جاء بأعمال الإسلام الظاهرة وعنده شيء من الإيمان يصحح إسلامه ، والمؤمن هو الذي عُمِر قلبه بحقائق الإيمان ، وهذا ما جاء الإشارة إليه في قوله ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ : يعني يتغلغل ويتمكن في القلب ، وقد سُئل أحد السلف: أيزيد الإيمان وينقص ؟ قال: «يزيد حتى يكون كأمثال الجبال ، وينقص حتى لا يبقى منه شيء» . فحتى يتغلغل الإيمان في القلب ويتمكن في القلب ويرسخ في القلب ينتقل الإنسان إلى رتبة الإيمان ، وهي الرتبة الأعلى .

ومن نرى فيه خيراً من أهل هذا الدين نحكم عليه بالإسلام ، لأن حُكمنا عليه بالإسلام حُكم بالظاهر – بما ظهر لنا منه – فنقول مسلم ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[فصلت:٣٣] ، أما الباطن فأمره لا يعلمه إلا رب العالمين ﷻ . فلا يزكي الإنسان نفسه بذلك ولا يزكي غيره ، وإنما يجاهد نفسه على تحقيق الإيمان وتقويته والبحث عن الأسباب التي تزيده وتقوّيه ، والبعد عن الأسباب التي تضعفه وتنقصه وتوهّيه .

ثم أعلى من ذلك رتبة الإحسان ؛ وهي أعلى رتب الدين . وإذا تصوّرت هذه على ضوء المثال الذي ضربه أحد السلف ؛ تعلم من خلال هذا المثال أن كل محسن مؤمنٌ مسلم ، لأن الذي يصبح في الدائرة الصغرى تحيط به الدوائر الأخرى ، ولا يصل إلى الإحسان إلا من خلالها ، فكل محسن مؤمن مسلم ، وكل مؤمن مسلم .

ثم إذا أردنا أن نعكس نقول : ليس كل مسلمٍ مؤمناً ولا محسنًا ، وليس كل مؤمن محسنا . وهذا واضح في الآية ؛ رب العالمين قال: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ أي لم تصِلوا بعد إلى رتبة الإيمان ، مازلتم في رتبة الإسلام ، فليس كل مسلمٍ مؤمناً ، يعني ليس كل من دخل الإسلام بلغ رتبة الإيمان هذه الرتبة العالية ، متى يبلغها ؟ إذا تمكن الإيمان من قلبه ، إذا تمكن الإيمان وتمكنت عقائد الإيمان الصحيحة من قلبه ورُزق الإيمان في قلبه يبلغ حينئذ رتبة الإيمان ، كثير من الناس تجده يحدَّث عن الإسلام وعن أعمال الإسلام ويراها أعمال جميلة وطيّبة فينطق بالشهادتين ويسلِم ويبدأ يصلي ويصوم ولكن حقائق الإيمان الباطنة ليست متمكنة في قلبه !! فهو

في رتبة الإسلام ، وإذا دخل الإيمان وتمكن من قلبه يصل إلى رتبة الإيمان ، ثم إذا بلغ حاله في عبادة الله والتقرب إليه الرتبة التي جاء بيانها في قوله ((أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)) فهذه رتبة الإحسان . والإحسان له ركن واحد وهو ((أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ)) : أي أن يكون الإنسان في عبادته لله تبارك وتعالى بهذه الصفة العظيمة .

إذاً الإسلام : هو الاستسلام لله تبارك وتعالى والانقياد لأمره ، وهو يشمل الدين كله عند إفراد الإسلام وإطلاقه ، ويكون مختصاً بأعمال الإسلام الظاهرة عند ضمّه للإيمان وقرنه معه في النص الواحد .

قال: ((**باب فضل الإسلام وقول الله تعالى:** ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾)) ؛ هذه الآية عظيمة جداً في بيان قيمة هذا الدين ومكانته من جهة ، وبيان تمامه وكماله من جهة أخرى وأنه لا نقص فيه ؛ دين الإسلام دين تام كامل لا نقص فيه .

قوله ﴿ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ؛ لأن شرائع الدين وأوامره جاءت تباعاً ، لم يؤمر بها الناس كلها في زمن النبي ﷺ دفعة واحدة ؛ وإنما جاءت تتنزّل بالتدريج ، يأتي أمر ثم يأتي آخر ثم يأتي آخر إلى أن كمُل الدين ، جاءت فرائض الإسلام وواجباته واحداً تلو الآخر وأحياناً يكون بين فريضة وفريضة ليس شهر ولا شهرين ربما سنة أو سنتين ، فجاءت فرائض الإسلام وواجبات الإسلام واحداً تلو الآخر إلى أن كمل الدين ؛ ولهذا لما نزلت هذه الآية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ لم ينزل بعدها حلال ولا حرام وتوفي بعدها النبي بقرابة ثمانين يوماً ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام، لماذا ؟ لأن بنزول هذه الآية كمُل الدين .

وهذه الآية الواجب على كل مسلم أن يشتد فرحه بها وأن تعظم في قلبه – والقرآن كله عظيم – لأنها آية تخبرك وتدلّك أن الدين الذي أكرمك الله به دين كامل ، لم يمت عليه السلام حتى أنزل الله ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ، فهو دين كامل لا نقص فيه ؛ كامل في عقائده ، كامل في عباداته ، كامل في أخلاقه ومعاملاته ، كامل من كل وجه ، دين كمّله من أنزله وهو رب العالمين سبحانه وتعالى ؛ ولهذا جاء في الصحيحين عن طارق بن شهاب قال: ((جَاءَ رَجُلٌ مِنْ الْيَهُودِ إِلَى عُمَرَ رضي الله عنه فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ آيَةً فِي كِتَابِكُمْ لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا – عرفوا قيمة الآية – قَالَ : وَأَيُّ آيَةٍ هِيَ ؟ قَالَ قَوْلُهُ عز وجل : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[المائدة : ٣] فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه : «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَالسَّاعَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ» ؛ نزلت هذه الآية في هذا اليوم العظيم المبارك الذي هو سيد الأيام على الإطلاق ؛ فيوم عرفة سيد أيام السنة ، ويوم الجمعة سيد أيام الأسبوع ، خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ عرفة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام مبيّنا هذه الخيرية : ((خَيْرُ

الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) .

وتأمل هذه اللطيفة : كان ﷺ في خير الأيام يُكثِر من خير الكلام ، لأن خير الكلام : لا إله إلا الله ، وخير الأيام : يوم عرفة ؛ فناسب غاية المناسبة الإكثار من خير الكلام في خير الأيام ، ليس في الكلام خير من لا إله إلا الله ، وليس في الأيام خير من يوم عرفة ؛ فكان في غاية المناسبة الإكثار من خير الكلام في خير الأيام .

فالشاهد : أن يوم عرفة خير أيام السنة ، ويوم الجمعة خير أيام الأسبوع ، ويوم الجمعة يوم عيد ، فيقول عمر: ((إِنِي لَأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالسَّاعَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ)) ؛ أما الساعة : قال ((عَشِيَّةَ عَرَفَةَ)) ، وأما اليوم : قال ((فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ)) ، فهي نزلت في هذا الوقت المبارك العظيم . ثم مات النبي عليه الصلاة والسلام بعدها بثمانين يوماً تقريباً ولم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام. إذاً الواجب على أهل الإسلام أن يعرفوا هذه الآية ومكانتها التي تدلهم على فضل الإسلام .

من أعظم فضائل الإسلام: أنه دينٌ كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه ، وإذا عرفت أن دين الإسلام كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه فعليك أن تعرف أن كل بدعة فهي ضلالة كما قال ذلك رسول الله ﷺ ، بل لم يقل ذلك مرة واحدة ولا مرتين ولا ثلاث ولا عشر ،كان إذا خطب الناس قال : ((أما بعد ، إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)) لم يستثنِ ﷺ بل عمّم وأطلق ((كل بدعة ضلالة)) .

اسأل هنا سؤال : لماذا كل بدعة ضلالة ؟ لأن الدين كامل . من يقول : في البدع بدعة ليست ضلالة بل هي حسنة ؛ فإن هذا يعني أن في الدين أمور حسنة مات نبينا ﷺ ولم يبيّنها ، وهذا أمر خطير ؛ ولهذا قال إمام دار الهجرة؛ الإمام مالك بن أنس رحمه الله ، قال كلمة عظيمة جداً : «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة ، لأن الله يقول : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ فما لم يكن يومئذ ديناً ، فلا يكون اليوم ديناً» ولن يكون دينا إلى أن تقوم الساعة ، الدين هو الدين الذي مات النبي ﷺ وترك الناس عليه ، وما سوى ذلك محدثات وأمور مردودة على فاعلها ؛ ولهذا قال ﷺ ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) ، قال: ((صلوا كما رأيتموني أصلي)) ، قال: ((لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ)) فالدين هو ما كان عليه رسول الله ﷺ .

قال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ ؛ اليوم : هو يوم عرفة ؛ في يوم عرفة عشية عرفة والنبي ﷺ واقف في عرفة نزلت ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ ؛ ففي يوم عرفة الدين كمُل بحلاله وحرامه وفرائضه وواجباته وأوامره . ولهذا بعد يوم عرفة عاش النبي ﷺ فترة ليست بطويلة لم ينزل فيها حلال ولا حرام، لأن الدين كمُل في ذلك اليوم .

﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ ؛ تمت النعمة بكمال الدين ؛ وهذا فيه فائدة لك : أن تمام النعمة عليك بحسب حظك من الدين ؛ فكلما كان حظك من الدين أعظم كان نصيبك من النعمة أوفر .

﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ؛ وهذه فضيلة من فضائل هذا الدين، وهو أنه دين رضيه الله ﷻ لعباده ، بل لا يرضى ديناً سواه ، ولهذا قال تعالى في آية أخرى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران:٨٥] يعني من ابتغى لنفسه ديناً غير هذا الدين الذي بُعث به النبي ﷺ فلن يُقبل منه ، وليس فقط لا يقبل منه ثم يكون الأمر لا له ولا عليه !! لا ؛ ﴿ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

إذاً قول الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ في هذه الآية ثلاثة فضائل للإسلام :

١) الفضيلة الأولى : أنه دين كامل لا نقص فيه .

٢) الفضيلة الثانية : أن تمام النعمة على العبد لا تكون إلا به.

٣) الفضيلة الثالثة : أنه الدين الذي رضيه تبارك وتعالى لعباده.

ولهذا بدأ المصنف رحمه الله بهذه الآية العظيمة؛ لما اشتملت عليه من بيان فضائل هذا الدين وكمالاته ، وأنه سبب النعم والسلامة من النقم ؛ النعم بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى ، وكذلك البعد من النقم ، كل ذلك لا يكون إلا بالمحافظة على هذا الدين والعناية به عقيدةً وعبادةً وخُلقاً وسلوكا .

قال رحمه الله تعالى :

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ **الآية** [يونس:١٠٤] .

****

ثم ثنّى بهذه الآية العظيمة وهي أيضاً تبين مكانة هذا الدين وعِظم شأنه ؛ بقوة حُججه وبراهينه وأنه دين واضح ؛ براهينه واضحات ، دلائله جليات ، وما سواه أديان باطلة قائمة على الخرافة وعلى الوهم وعلى الظنون الفاسدة والأفكار الكاسدة ، أما دين الإسلام فهو دينٌ عظيم ، دينٌ قائم على البراهين الواضحة والحجج البيّنة والدلائل الساطعة الشاهدة بصدقه وأنه الدين الحق وأنه ليس دينٌ حقٌ سواه ، ولهذا جاء بهذه الآية مبيناً ذلك في فضل الإسلام ومكانته .

قال : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾: أي يا رسول الله يا نبي الله قل للناس : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ﴾ ؛ يعني إن كان عندكم شك أو ارتياب في أن الدين الذي أنا عليه هو الدين الحق ، إن كانت قلوبكم مرتابة منه وتظنون أن الدين الذي أنتم عليه هو الدين الحق ؛ فإنني أقول لكم ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ .

وتأمل هنا : تأمل بيان كمال هذا الدين وبطلان ما سواه بهذه الكلمة التي أُمِر النبي ﷺ أن يقولها لكل مرتاب شاك مقبِل على عبادة الأوثان والأصنام تاركٍ عبادة الرب العظيم الخالق لهذه الأكوان المتصرف في المخلوقات خلقاً ورَزقاً وإحياءً وإماتةً وتدبيراً ، فيقول : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ؛ لأن كل من يُعبد من دون الله عبادته من دون الله لم يقم عليها أي دليل ، وليس عليها أي برهان ، وليس فيها أي أثارة من علم ، كل عبادة من دون الله عبادة ليست قائمة على دليل ، ولهذا قال عليه السلام كما أخبر الله ﷻ : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [النجم:١٩-٢٣] ، وقال ﷻ : ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون : ١١٧] ، وقال تعالى فيما ذكره عن يوسف عليه السلام : ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾[يوسف:٣٩-٤٠] . ولهذا كل تعبّدٍ بغير الإسلام وكل عبادة على غير الإسلام فهي على غير برهان وعلى غير حجة ؛ بل قائمة على الخرافة ، وعلى الباطل ، وعلى الفكر القاصر والتصورات الضعيفة القاصرة.

﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ؛ لأن كل من تعبدونه من دون الله عبادته من دون الله ليست قائمة على أي برهان ، هاتوا دليلاً واحداً يبين صحة عبادة هذه الأشياء ، هل هذه الأشياء التي تعبدونها تملك لكم ضراً أو نفعا !! عطاءً أو منعا !! خفضاً أو رفعا !! هل تملك شيئاً من ذلك ؟ هل بيدها إحياء !! هل بيدها إماتة !! هل بيدها تصرف ؟؟ هل.. هل؟؟ ، القرآن جاء بأسئلة كثيرة في هذا الباب تبين فساد عبادات هؤلاء القائمة على الشرك وعلى الخرافة ولهذا قال : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لأن كل ما يُعبد من دون الله فعبادته قائمة على الباطل.

﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ ؛ هذا برهان واحد من آلاف البراهين ، خذوا برهاناً واحداً ودليلاً واحداً على صحة هذا الدين وهو الإخلاص لله تبارك وتعالى وإفراده ﷻ وحده بالعبادة : ﴿الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ ؛ من الذي يتوفاكم ؟ موتكم بيد من ؟ ليس بيد أحدٍ إلا رب العالمين ﷻ . ﴿الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾هذا برهان واحد من مئات وآلاف البراهين الدالة على وجوب إخلاص الدين لله والاستسلام لله رب العالمين ؛ الذي بيده أزمّة الأمور ومقاليد السماوات والأرض ، ولهذا ساق لهم دليلاً واحداً وأبان أنهم ليس عندهم أي دليل ليس عندهم أي برهان ، فهذا مما يبين فضل دين الإسلام ومكانته ؛ أنه الدين الذي قامت عليه البراهين الظاهرات والحجج الجليات الواضحات، وأما ما سواه من الأديان والعقائد فهي عقائد ليست قائمة على دليل ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ .

ومما سبق نستفيد فائدة عظيمة بل قاعدة مهمة وهي : أن الأديان الموجودة على وجه الأرض بين الناس ويعتقدونها ويدينون بها هي على قسمين :

القسم الأول : دين نازل ممن خلق هذا الكون وأوجده ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾[الشعراء:١٩٢-١٩٥] ؛ دين نازل نزل من الله ﷻ ، وانظر في تمام هذا التنزل للدين ونزوله من رب العالمين أن خُتم بقوله ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ قال عمر ﷺ : «إني لأعرف اليوم الذي نزلت فيه هذه الآية والساعة التي نزلت فيها هذه الآية ؛ نزلت في عشية عرفة في يوم جمعة» فهو دين نازل ، نزل تِباعاً ، تنزل من رب العالمين إلى أن كمُل وأنزل الله ﷻ مخبراً بكماله وتمامه قوله : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ، وهذا الدين النازل من رب العالمين وحده هو الدين الحق ، وما سواه من الأديان التي على وجه الأرض كلها باطلة ، لماذا؟ لأنها أديان نابتة في الأرض ما أنزل الله بها من سلطان . والسلطان : هو الحجة ، وسميت الحجة سلطانا : لأنها تتسلط على القلب ولا يستطيع أن ينفك عنها ؛ خانقة وماسكة بالإنسان . قال﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي ما أنزل الله بها من حجة .

ولهذا مما سبق نستفيد قاعدة في الباب وهي : أن كل دين لم ينزِّل الله ﷻ به من سلطان فهو دين نابت في الأرض؛ يعني اخترعه الناس بعقولهم ، بأفكارهم ، بآرائهم ، بتجاربهم ، إلى غير ذلك ، وكل دين نابت فهو دين باطل ؛ لأن الله ﷻ لا يرضى أي دين مهما استحسنه الناس ومهما استجودوه ومهما عظموه ، فهو جل وعلا لا يقبل من الأديان إلا الذين الذي نزل منه .

ولو سألتكم الآن : ما هي الأمارة التي يُعرف بها الدين النازل من غيره ؟ أمارة الدين النازل : قال الله قال رسوله ﷺ . فإذا وُجد الدليل من كلام الله أو كلام رسوله عليه السلام فهذا دليل على أنه دين نزل من رب العالمين ، لكن لو قال لك شخص : " نريد أن نفعل كذا نتقرب إلى الله بهذا لأني جربت أنا وشيوخي جربوا مثلا " تقول هذا ليس دليل . أو قال : نريد نعتقد كذا لأن في تصوري وفي خيالي وفي فكري .. وبدأ يسوق لك عقليات وخيالات ، تقول هذا لا يبنى عليه دين ، الدين لا يبنى إلا على شيء نازل من رب العالمين ، وما لم ينزل من رب العالمين فهو باطل مهما استحسنه صاحبه ومهما استجوده ومهما رآه جميلا ؛ فالله ﷻ لا يقبل من الأديان من الأعمال من العقائد إلا ما كان نازلاً منه ، ولهذا قال عليه السلام : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) أي مردود على صاحبه غير مقبول منه .

قال رحمه الله :

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد : ٢٨] .

****

ثم ختم الآيات بهذه الآية الكريمة في بيان فضل الإسلام ؛ قال : ((**وقول الله تعالى** : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾)) ؛ ناداهم باسم الإيمان ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، وقد قيل في تفسيره هذه الآية: إن المراد بهؤلاء من آمن من أهل الكتاب ، وقيل : إن المراد عموم من آمن. وهو الأقرب والأظهر . ولهذا قيل في معنى ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ : أي من آمن من أهل الكتاب يؤتهم نصيبين وافرين من رحمته ؛ نصيبٌ على إيمانهم بالأنبياء ، ثم نصيبٌ على إيمانهم بخاتم الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه ، وقيل المراد : عموم أهل الإيمان، وإيتاء الكفلين من رحمته ؛ قيل : على التقوى وعلى الإيمان المأمور بهما في الآية ، وقيل : على فعل الأوامر واجتناب النواهي ، وهو ما يقتضيه الجمع بين التقوى والإيمان في النص الواحد ؛ فالتقوى: اتقاء المحرمات ، والإيمان : العقائد الصحيحة وفعل الأوامر والطاعات . وهذا حال اجتماع الإيمان والتقوى في النص الواحد ، أما إذا ذُكر كل واحد منهما مفرداً شمِل معنى الآخر على ما بُيّن في القاعدة المتقدمة .

قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ ؛ ناداهم باسم الإيمان وأمرهم بمقتضيات هذا الإيمان ؛ تقوى الله والإيمان برسوله ، ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ : اتقوا الله وذلك بتحقيق تقواه ﷻ بأن تجعلوا بينكم وبين ما

تخشونه من عقاب الله وسخطه وقاية تقي من ذلك ، وآمنوا برسوله وأنه رسولٌ حق مرسل من رب العالمين ، وهذا الإيمان يقتضي طاعته ﷺ فيما يأمر به ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء : ٦٤] .

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ ؛ وهذه حقيقة الإسلام ، حقيقة الإسلام : تقوى الله والإيمان بالرسول انقياداً وامتثالاً وطاعةً لله ﷻ؛ تقوى الله: بتحقيق توحيده وإخلاص الدين له، والإيمان بالرسول ﷺ : بطاعته وامتثال أوامره عليه السلام واجتناب نواهيه .

أما الفضائل ما هي ؟ قال : ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ هذه فضائل للإسلام:

١) الفضيلة الأولى : قال ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ ؛ أي نصيبين وافرين وحظين عظيمين من رحمته ﷻ التي كتبها لأهل الإيمان وأهل الإسلام .

٢) ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ ؛ أي أن استمساك العبد بالإسلام وطاعته لرسوله ﷺ وإيمانه بما جاء به الرسول عليه السلام ومعرفته بذلك هو في الحقيقة نور يضيء له طريقه ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾[الزمر:٢٢] ، فمن كان عنده الإسلام فعنده نور يضيء له الطريق في الظلمات ؛ ولهذا أيضا قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى:٥٢] ، فالإسلام نور وضياء يعرف به صاحبه الحق من الباطل والهدى من الضلال ، يعرف به الطريق الذي يوصله إلى رضا الله تبارك وتعالى وجنات النعيم . قال ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ ؛ أي بهذا النور .

٣) ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ؛ أي يغفر لكم ذنوبكم . والمغفرة : هي العفو والصفح والستر ، وقد قال عليه السلام ((الْإِسْلَام يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ)) كما أنه قال : ((الْحَجّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ)) كما قال : ((التوبة تجبّ ما قبلها)) فالإسلام وتحقيقه أعظم ما تمحى به الخطايا وتُكفّر به السيئات .

قال: ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ؛ خُتمت هذه الآية بهذين الاسمين لتعلقهما بالمعنى الذي ورد في الآية ، فالمعنى الذي ورد في الآية الدعوة للإسلام وتحقيق تقوى الله وطاعة رسوله عليه السلام وبيان ما يترتب على ذلك من الآثار والعوائد ومنها : إيتاء الله ﷻ لمن كان كذلك كفلين من رحمته ، ويجعل له نورًا يمشي به ، ويغفر له ؛ وهذا كله من آثار هذين الاسمين العظيمين «الغفور الرحيم» ، فالله ﷻ إذا أراد بعبده خيراً ورحمةً ومغفرةً وفّقه لهذه الأعمال وجعله من أهلها فينال بذلك رحمة الله ﷻ ومغفرته. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .